الدور الإيديولوجي للقمع في بناء حضارة

The role of the ideological force in the construction of civilization

أ. أحمد مسعود خديجة: جامعة الجزائر-2- قسم الفلسفة

khadidjamessaoud66@gmail.com

ملخّص:

هدفت الدراسة إلى تحليل الأطروحة الفرويدية التي تقرن قرنا ضروريا بين الحضارة والقمع على أساس أن الحضارة لا يمكنها لا الوجود ولا التطور بدون منع للرغبات وقمع لها.

وقد سعينا إلى تتبع هذا التحليل في مختلف النصوص الفرويدية، حيث برزت تصوراته لمسار الحضارة من حيث هو قائم على قمع النزوات الجنسية كانت أم عدوانية. ومعنى ذلك أن الحضارة تفرض على الإنسان ألوانا من القهر وأنواعا من التحريمات أي أن التحضر هو في أساسه تغيير لطبيعة الإنسان الأصلية وطرح لمبدأ اللذة المباشرة في سبيل الخضوع لأمر الواقع وكلما ازدادت الحضارة نموا انتصر مبدأ الواقع على مبدأ اللذة وهذا ما يعترض عليه ماركيوز.

الكلمات المفاتيح: مبدأ اللذة، مبدأ الواقع، القهر، الحضارة، الوجود.

Abstract :

The study aimed at analysing the Freudian thesis which is inextricably linked to the civilization and Repression on the basis that civilization could not neither existence, nor evolution without preventing desires and repress it,so we have attempted to keep track this analysis in different Freudian texts where its evolution showed up clearly to the civilization's path which is based on repressing the sexual impulses or hostile (aggressive) ,it means that civilization is imposed on individual colours of repression and different taboos (prohibitions),which means that civility (urbanisation) is essentially a change in the human nature's asset ,and an ask (propose) to the pleasure principle directly into the spot, and the more civilization is growing the principle of reality triumphed over the principle of pleasure, and that is what Marcus objects to.

مقدّمة:

حين ننظر إلى ما كتبه مؤسس التحليل النفسي حول الحضارة ووضع الإنسان داخل المجتمع ليس بوسعنا إلا أن نسجل بأن التأمل الفلسفي لم يكن قط غائبا لدى فرويد، وهذا باعترافه "في أعمال سنواتي ... أطلقت العنان للميل إلى التأمل الذي قمع طويلا".[1] يبدو لنا هذا الاعتراف لفرويد جديرا بالاهتمام لأن الميل إلى التأمل بارز بشكل واضح في مؤلف "محاولات في التحليل النفسي". وفي مؤلف لاحق له وهو "قلق في الحضارة" (1930) سعى فرويد إلى تأملات تتجاوز وجهة النظر العيادية، فعالج مسائل السعادة والحضارة كما الشعور المتنامي، بصورة دائمة بالذنب، عند الإنسان من خلال تطور الحضارة. وفي الحقيقة يتعلق الأمر في التحليل النفسي، بصورة رئيسية بالحضارة البشرية، وبالعلاقات المتبادلة بين الفرد والجنس البشري. لم يكن فرويد معالجا في خدمة المرضى العصابيين فقط وإنما أيضا مفكرا وناقدا لبيراليا طرح بكل جرأة قضية قيمة الحضارة ومطلب الإنسانية في السعادة. ذلك أن التحليل النفسي، كأداة تحرر لا يقبل الانغلاق داخل إطار العلاج، بل يرمي إلى نقد المجتمع. من المفيد أن نعرف إن فرويد كان ناقدا ليبيراليا للمجتمع البرجوازي المعاصر له.

لقد رأى أن المجتمع يحمل الإنسان آلاما كثيرة، تخلق مضاعفات خطيرة، وأن القيود المفروضة على الإنسان، كما تبرز في ميدان الأخلاق الجنسية، تؤدي إلى تكوين العصاب.وهكذا لا يمكن فهم القمع (والمصير الإنساني) إلى استنادا إلى خلفية تحليل الحضارة كما اقترحها علينا فرويد. هذا وحتى يمكن تحديد الدور الايديولوجي للقمع في بناء الحضارة، فإننا نجمل الاشكالية المتعلقة بدراسة موقف فرويد من ضرورة القمع في التساؤلات التالية:

- ما هي العلاقة بين القمع والحضارة؟
- لماذا صرح فرويد بحتمية القمع لمصير الحضارة؟

يرى فرويد الحضارة كمنجز مرتكز على ترك الرغبات النزوية "إن الحضارة تشمل، من جهة كل المعرفة والسلطة اللتين اكتسبهما البشر في سبيل السيطرة على قوى الطبيعة والاستيلاء على خيراتها الجديرة بإشباع الحاجات البشرية، وتشمل من جهة ثانية، كل الإجراءات الضرورية لضبط علاقات البشر فيما بينها، لاسيما توزيع الخيرات الممكن بلوغها فكل فرد هو بالقوة عدو للحضارة، مع أنها هي ذاتها لمصلحة الإنسانية عموما".(2)

تجرى الحضارة وراء هدف مزدوج: صراعها ضد الطبيعة لتأمين الاستمرار المادي للناس، وضبط العلاقات بين الأفراد داخل الحياة الجماعية. وبما أن الجماعة تصبح قادرة على مواجهة العالم الخارجي كلما كانت متجانسة، فثمة حاجة حيوية، مفروضة منذ الأصل، بتضييق العلاقات الاجتماعية، ولا يمكن الحصول على هذه النتيجة إلا بتقييد الحرية الجنسية. إن الحضارة في فلسفة التحليل النفسي لا تتعارض مع الإنسان فحسب. بل أيضا مع ما نشترطه من ظهور للظروف المتنازعة والمتحولة، في حالات كثيرة إلى أمراض نفسية. فالحضارة بالذات بمتطلباتها غير المحدودة في كبح الرغبات الجنسية، هي منبع الاضطرابات النفسة. "إن متطلباتنا التمدينية الثقافية تجعل الحياة قاسية للغاية بالنسبة إلى أكثرية الناس. وإن هذه المتطلبات (كبت الجنسية) تسهم في الابتعاد عن الواقع وظهور الأعصبة، علما أنه لم يتحقق نجاح في المجال الثقافي التمديني بعد".(3)

من هذه الزاوية بالذات التي تتمثل في القلق الحضاري ظهر التحليل النفسي من المكبوت، لكي يعيد للإنسان جانبا من تكوينه المكبوت، وهويته، ويعيد النظر في انجازاته الحضارية، لذا فهو بهذا المعنى توجه فكري يهدف إلى "تطوير الوعي النقدي وكشف العقلنة والأوهام القدرية المفروضة التي تشل قدرة البشر على الفعل والتأثير"(4)، فلا غرابة والحال هذه أن يتحول التحليل النفسي إلى تساؤل ونوع من الاستجواب للمواضيع المتفجرة، المشحونة بالعاطفة، مثل ألغاز الحياة والموت. إنّ أبرز ما يلاحظ في أعمال فرويد النظرية هو توجه النقدي والاشكال الذي أصبح من اللازم علينا أن نوضحه، هنا يتعلق بتحديد علاقة فرويد بالفلسفة.

إن الطريقة الشمولية التي نظر بها فرويد إلى الإنسان تعتبر جزءا من أهم تيارات الفكر الغربي منذ القرن عشر: محاولة الاستحواذ على الحقيقة والاتصال بها وتخليص الإنسان من الأوهام التي تخفيها وتشوهها. "إن كانط، هيجل، ماركس، ونيتشه، كل هؤلاء حاولوا الاقتراب

من الحقيقة، والامساك بها، مباشرة ودون أي التواء. ورغم الاختلاف فيما بينهم فإنهم يعبرون جميعا عن الرغبة المحمومة لإنسان الغرب في رفض القدسيات المزيفة في الغاء الأوهام، وفي إدراك الذات والعالم كجزء في الحقيقة الشاملة".(5)

إن قراءة نضالات فرويد تجعلنا نفكر أن التحليل النفسي أدى إلى البحث عن صورة جديدة للوجود، وللإنسان في الوجود،وشكل حافزا للشروع بتأسيس خطاب فلسفي جديد ملقح باكتشافات فرويد، فلم يعد بوسع المفكر أن يمارس التفكير وكأن فرويد لم يوجد.

ويلاحظ أن فرويد كان في مؤلفاته حريصا أن تكون لآرائه انعكاسات اجتماعية وخلقية وسياسية، وأن يلعب دور الناقد للفكر وللحضارة البشرية، فهو لم يحصر تطبيق طرائق علم النفس التحليلي الذي أسسه في مجال الأمراض النفسية، بل حاول أن يعرض أيضا حلولا لمشكلات الفن والفلسفة والدين كما ذكر سابقا، وأن يقدم نظرية عامة عن التطور الحضاري وتاريخ الإنسان. ذلك أن التحليل النفسي لا يقبل الانغلاق داخل بوتقة ما هو موجود، بل يرمي إلى نقد المجتمع يقول فرويد: "شعرت في صباي، بحاجة لا تقاوم لفهم أسرار العالم الذي نعيش فيه، وحتى بالحاجة للمساهمة في حلها".(6)

حين ننظر إلى ما كتبه فرويد حول الحضارة ووضع الإنسان داخل المجتمع، لا يفوتنا أن نؤكد إنّ فرويد انشغل بالعلاقة القائمة بين مقتضيات الحياة الاجتماعية من ناحية وما تطرحه على الفرد من مشاكل من ناحية أخرى وهذا ما نجده بارز بشكل واضح في مؤلف "قلق في الحضارة" وهنا يطرح عددا من التساؤلات: هل العلاقات بين الحرية وقمع الإنسان وبين امكاناته الخلاقة والتدميرية، وبين التقدم الحضاري والسيطرة على الفرد من قبل القوى الاجتماعية، هل هي بالفعل تشكل المبدأ الأساسي للحضارة البشرية؟.

كتب ماركيوز: "إن مفهوم الإنسان المشتق من النظرية الفرويدية ، هو فعلا لاتهام الأقصى الذي لا يمك ندحضه، ضد الحضارة الغربية...إنّ تاريخ الإنسان بحسب فرويد هو تاريخ قمعه. ذلك أن الحضارة لا تفرض أشكالا لقسر على وجوده الاجتماعي فحسب، ولكن على وجوده الحيوي فهي لا تحد من بعض أجزاء في الوجود الإنساني فقط ولكنها تحد بنيته الغريزية ذاتها، ومع ذلك فإن هذا القسر أو الإرغام هو وحده شرط التقدم الأولي(7)

وهنا يمكن أن نستنتج أن من وجهة نظر التحليل النفسي، تستند الحضارة كليا على نتائج انزياح رغبات الإنسان اللاواعية، فهي تبرز في صيغة من القيود والمحظورات المحددة، المفروضة على الفرد والتي تعيق استجلاء رغباته الطبيعية وجموحاته. هذا ويكمن هدف الحضارة في القمع الخارجي أو الداخلي (من خلال الأنا الأعلى) للأهواء ذات الطابع الجنسي والتدميري. وقد بحث فرويد تطور الحضارة من حيث لجم ميول الإنسان العدوانية والصراع المتواصل بين "الايروس" و"التاناتوس"، فقد "عرض فرويد لخط نمو القمع في مستوى البنية الغريزية للفرد. فرأى أن مصير الحرية والسعادة الإنسانيتين إنما يتقرر نتيجة لصراع الغرائز، الذي هو حرفيا، صراع من الحياة والموت، وتشترك فيه سوما (soma) وبسيشية (النفس)، الطبيعية والحضارة"[8]. ومنه نتساءل أولا كيف وجد فرويد في ممارسة القمع ضرورة تقتضيها متطلبات إرساء الحضارة؟، ثم ما هي صوره ومجالاته؟.

يطرح فرويد مشكلة الحضارة على قاعدة ما يتسبب فيه تطورها من آلام وتعاسة. وبالفعل إذا كانت السعادة هي إشباع النزوات، فإن بلوغ هذا الهدف غير ممكن أبدا، ويتلخص فكره في هذه الجملة: السعادة هي ما لم يستطيع المجتمع قط تحقيقه فهي ليست قيمة ثقافية. ويتجه فكر فرويد باتجاه إقامة علاقة ضرورية بين الحضارة والقمع. وكل أشكال الحضارة يلجأ إلى القسر والقمع ولا أحد منها قادر على الافلات من هذا القدر، ولهذا لن توجد حضارة غير قمعية.

لقد أشار فرويد إلى القمع الذي يمارس على الإنسان في أكثر من موضع، لكن الأكثر شيوعا هو اقترانه بالطبيعة الغريزية للإنسان كالجانب الجنسي وهو صورة مبدأ اللذة وغريزة الحياة حيث "يمارس القمع على الجنسية في معناها الأكثر شيوعا"[9] بمعنى يتحدث فرويد عن قمع "الدافع الجنسي" و"الحركات الجنسية" والليبيدو "الجنسي" و"الجنسية". كذلك اقترن بغريزة الموت thanatos التي تمثل غرائز العدوانية والتدمير "ويمكننا أن نضيف لها سلسلة ثانية يتحدث فيها فرويد عن قمع "الكره" و"الرغبة" في الانتقام و"المشاعر" و"العواطف" والمقصود هنا قمع العدوانية"[10] لكن الاعتراف بمدى انسحاب القمع كممارسة على كل الطبيعة الغريزية للإنسان مقرون بغائية تمثلت عند فرويد في نشاط بناء الحضارة، حيث "إنّ التنظيم القمعي للغرائز قائم في أساس جميع الصور التاريخية التي يتبدى من خلالها مبدأ الواقع في الحضارة"[11].

وعليه يمكن القول إن التنظيم القمعي يقوم بدور هام في نمو المجتمع وتطوره حسب فرويد، لأن الذات تقمع عواطفها أو ميولاتها من مساوئ ومخاطر، إنما تتصرف وفق نظام قيمي موصوف من قبل المجتمع، فالقمع في رأي فرويد ضروري، لكي يتمكن الإنسان من التكيف مع الحياة الاجتماعية، والتحكم بدوافعه الخطرة، كما أن هذا التعميم والتأكيد يجعل عمق تصور فرويد للقمع يمتد إلى غرائز الإنسان ويقيم علاقة ترابط وثيقة مع النمو الحضاري الذي يرى فيه عملية سيطرة منظمة وقد "كان فرويد يبرر التنظيم القمعي للغرائز، بتأكيده على أن كلا من مبدأ اللذة الأولى، ومبدأ الواقع، لا يلتقيان، فإنه بذلك يعبر عن واقع تاريخي، نمت من خلاله الحضارة، من حيث تسلط منظم."[(12)] ومنه يتأكد لدى ماركيوز أن ارساء معالم الحضارة يقتضي ممارسة تسلط منظم يمتد لقمع الطبيعة الغريزية للإنسان، ويرافق ذلك تقبل لهذه الصورة القمعية، وترصد لها مبررات تشكل وعيا معينا يقبل بذلك، فقراءة ماركيوزلفرويد تكشف أن القمع ضروري انطلاقا من عدم إمكانية التناسب من مبدأ اللذة الأولي ومبدأ الواقع، أي أن الدوافع الغريزية في الإنسان قد تتناقض معه هو قائم، أو ما يراد له أن يكون كأمر واقع، ولذلك وجب قهر هذه الدوافع الغريزية الملحة تحت تبرير مقتضيات الحضارة ومتطلباتها، ففرويد يرى أن القمع في صورة ما ثمن للحضارة، وأن "كل حضارة ملزمة بأن تشيد نفسها على الاكراه وعلى نكران الغرائز"[(13)]. ويعتقد فرويد أن هذا التعارض بين المتطلبات الغريزية للإنسان والواقع الحضاري القائم، ليس أمرا عارضا بل امتدادا تاريخيا ومنه كما ذكر في السابق تاريخ الإنسان بحسب فرويد هو تاريخ قمعه. ويقود هذا التحليل أن السند الذي يرتكز عليه فرويد في تفسير نشأة الحضارة إلى أصل أسطوري "يجعل الحضارة تنشأ عن استبدال نظام الطغيان الأبوي في القبيلة الابتدائية بنظام الأخوة"[(14)]. ورغم ما يبدو من تناقض صريح لدى فرويد من اعتبار ثنائية القمع والحضارة كحدث تاريخي من جهة وسند لا تاريخي –أسطوري- من جهة ثانية. إلا أن ماركيوز يتجاوز هذه الصورة المتناقضة ليبحث عن تفسير لمضمونها كفكرة لا كحدث وهو ما قد يكون من العوامل التي قادته إلى استنتاجات ميزت تصوره عن

أراء فرويد، خاصة ما تعلق بفكرة القمع المتزايد ومبدأ المردود، كما يتأكد كذلك أن فهم فرويد يسهل فهم ماركيوز.

وعلى هذا الأساس اهتم فرويد بدراسة واقع مقتضيات الحياة الاجتماعية المعبر عنه في مبدأ الواقع على حياة الإنسان النفسية، وكيفية تفاعل الجهاز النفسي بطبقاته الثلاث أمام دوافع الغريزة سواء غريزة الحياة (الإيروس) أو غريزة الموت (التاناتوس)، وربطها بمفاهيم التضحية والقمع فالدوافع الجنسية تصطدم مع سلم القيم الأخلاقية، في حين تصطدم غرائز العدوانية مع النظام العام للمجتمع ونسقه القانوني، وفي الحالتين هناك رفض اجتماعي، وقمع يمارس لتهذيب هذه الغرائز حيث "يلقى الدافع الجنسي بالأخص معارضة قوية من جانب الحضارة والأخلاق والدين وينجم عن هذا الصراع تضييق شديد يطول الجنسية التي تصبح قائمة في نهاية الأمر، عن التوالد داخل العائلة"(15). وبذلك يتم قمع الجنسية واختزالها فيما هو تناسلي، ومن هذا المنطلق حاول فرويد بشروعه في بحث تاريخ تطور المجتمع البدائي، صياغة التطور التاريخي للحضارة البشرية، فهو اعتبر التنازل التدريجي عن النزعات والرغبات اللاواعية الطبيعية، المميزة للإنسان البدائي، عاملا من العوامل الرئيسية في التطور الحضاري. أي كلما ازدادت الحضارة تطورا، انتصر مبدأ الواقع على مبدأ اللذة، وفي هذا السياق يوافقهماركيوز موضحا بقوله: "إنّ نمو التقدم يرتبط بمضاعفة حدة الاضطهاد"(16). « Cependant le développement du progrès semble être lie à l'intensification de la servitude ».

المهم عند فرويد أن الكبت هو الثمن الذي يدفعه الإنسان لقاء تقدمه الحضاري، وهكذا يظل يعمل وينتج بدلا من أن يستجيب لدوافعه الطبيعية (خاصة الجنس). وهو يرى أن أول تنازل عن هذه الرغبات من ناحية نشوء الفرد في الأسرة الأبوية البدائية، قد حدث عندما تخلى الأبناء، بعد قتل أبيهم، وشعورهم بالذنب، عن حق امتلاك النساء- كما ذكر سابقا-، أما التطور اللاحق للحضارة، وعملية أنسنة Humanisation الكائن، فقد سارت حسب فرويد، في مجرى تنازله الواعي عن الإشباع، مقابل الحصول على اشباع مرجأ. فضلا عن ذلك أن التخلي الواعي عن الاشباع المباشر للرغبات الطبيعية القائم في البداية على الارغام والقسر الخارجي، بهدف حفظ النوع البشري، قد تحول تدريجيا إلى اتجاه داخلي للذات، التي تراعي القواعد والمعايير الأخلاقية للمجتمع، وهكذا فإن الحضارة كلها تبدو

لفرويد مبنية على القمع الخارجي أو الداخلي، للرغبات اللاواعية عند الإنسان "تنطلق الحضارة عندما يتم الاستغناء بصورة فعلية عن الهدف الأولي لإشباع التام للحاجيات"(17)، فمن هذه التنازلات من نوازع شخصيته وميولاته الأولية تتألف الملكية الثقافية المشتركة للخيرات المادية والخيرات الفكرية.

ولهذا فإن السعادة، فيما يرى فرويد، ليست قيمة حضارية فعنده تعني التعبير النفسي الشهوي المتحرر من كل قيد، على حين أن الحضارة هي قيود مفروضة دائما على هذه السعادة تحد من تحققها واشباعها. ولهذا فالفرد يقف بين مبدأين في صميم بنائه النفسي، مبدأ اللذة من مكنونات لاواعية، ومبدأ الواقع المترصد له من حوله، بل ومن داخله أيضا. لذلك لا سبيل إلى تحقيق مبدأ اللذة إلا بتدمير الحضارة، لأنه كان لا يعتقد بوجود غريزة اجتماعية بدائية لدى الجنس البشري، بل أن الروابط الاجتماعية تأتي على حساب الطاقة الجنسية، وعندئذ يكون "نمو الحضارة متناسبا تناسبا عكسيا مع نمو الحياة الجنسية"(18).

وهكذا يتضح أن فرويد ربط بين الحضارة ووجود القمع ومضاعفته، فوضع علاقة حتمية بين الحضارة والقمع ومعنى ذلك أن الحضارة تفرض على الإنسان أشكالا من القهر وأنواعا من التحريماتles tabous أي أن التحضر هو أساسه تغيير لطبيعة الإنسان الأصلية وطرح لمبدأ اللذة المباشرة في سبيل الخضوع لأمر الواقع. ولهذا سيظل سلوك الإنسان المتحضر تعبير عن كبته واحتجازا لنزوته الجنسية وسيظل يدفع من سعادته الذاتية ثمنا لحريته الاجتماعية ويضع فرويد مجالا واحدا للتخفيف من هذا الكبت وهو التسامي la sublimation ويقول فرويد في هذا الصدد والتسامي بالغرائز من أكثر ما يميز عملية الارتقاء الثقافي، ولعله ما جعل العمليات العقلية العليا، والأنشطة والفنية والايديولوجيا، تلعب دور مهما في الحياة الحضارية،(19) أي تحويل الرغبات الجنسية المكبوتة إلى بدائل ثقافية في الإبداع والأدبي عامة، أو في الحروب التي تشبع بعدا من أبعاد نزوة الموت وهي نزوة التدمير، وهكذا يمكننا القول أن كبح الغرائز ورفضها واحد من الشروط الأساسية لوجود المجتمع ذاته، بل والمدنية في مجملها "فالحضارة في نظره تكبت الجنس لتستفيد من بعض ميوله في تشيد أنظمتها"(20) وهكذا تصبح الحضارة عند فرويد قمعا للطاقات الغريزية، أو تحويلا لها

عن طريق التسامي، ومع اتصال حركة التقدم سيصبح عسيرا تحقيق تحول كاف للطاقة الغريزية نحو غايات اجتماعية مقبولة.

بتعبير آخر، تتطلب نكران النزوات الجنسية، هذا النكران الثقافي يحرك الميدان الواسع للعلاقات الاجتماعية، وهو كذلك السبب للعدائية الدائمة التي على الحضارة أن تناضل ضدها وتقدم أبهظ التضحيات النفسية، وأيضا توجه الحضارة الطاقة نحو أهداف مقيدة اجتماعيا "كان الأساس للحياة الجماعية البشرية منذ نشأتها، اجبار الإنسان على العمل الذي خلفته الضرورة الخارجية والحب كقوة ثانوية. "هكذا غدا الايروسErosوأنانكهAnanaké والديّ الحضارة الإنسانية التي كانت مأثرها الأولي اتاحة الامكانية بعدد كبير من الكائنات البشرية أن يبقوا ويعيشوا في ظل حياة مشتركة.(21)

يبدو أن إحقاق التجانس بين أفراد المجتمع يبرر مشروعية القمع الذي يمارس على الإنسان، كما يزود وعيه بتحليل يثبت هذه الممارسة القمعية حيث "يأخذ القمع من وجهة نظر اجتماعية، شكل وأثر وإكراه خارجي، أي اجتماعي، يمارس على كل أعضاء المجتمع ويجبرهم على "إعادة صياغة" حياة دافعهم أو تقييدها والتوافق مع المعايير المقررة سابقا والتخلص مما قد يربك النظام الاجتماعي أو يشكك فيه"(22). ومن جانب آخر يرسم صورة تجعل من القمع ضريبة ينبغي أن يقدمها الإنسان لدفع حركية الحضارة، فيتنازل عن الكثير من متطلبات طبيعته الغريزية تحت تبرير الضرورة الحضارية فيستباح ويتعرض للقمع المباشر وللكبت كآلية لا شعورية، وهي تعبير لشكل من القمع الذاتي تحت وطأة مبدأ الواقع: وهكذا فعلى الحضارة أن تزيل عن الجنسية جزءا كبيرا من طاقاتها لتوجهها نحو أهداف مشتركة مفيدة لجميع البشر وبالتالي هي حضارة بالضرورة حضارة قمعية، والتضييق على الحياة الجنسية ضروري أيضا.

فالحضارة تتطلب تصعيدا مستمرا: ذلك أنها تضعف الإيروس منشئ الحضارة، وإن عملية التجريد من الجنس تحرر الدوافع التدميرية بإضعافها لإيروس. وهكذا فإن الحضارة يتهددها فصم الإتحاد الغريزي، هذا ومن خلال هذا الفصم تجهد غريزة الموت للتغلب على غرائز الحياة، فالحضارة التي قام أساسها على التنازل القسري، والتي نمت بفضل تنازل متقدم، تنزع إلى التدمير الذاتي.(23)

وفي ضوء هذه التصورات يمكن طرح سؤال لماذا كان موقف فرويد من ضرورة القمع حاسما؟ يقوم على شكل من أشكال التنظيم على قمع النزوات، حقا أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش في مجتمع ولا أن يكون إنسانا فعلا دون خضوع إلى بعض مقتضيات نمط الاشباع المتبع وآلياته، وصحيح أيضا أن كل إنسان بحاجة إلى سلطة تضع له حدودا كي يتمكن من ضبط ذاته وضبط نزواته. لا مجتمع بدون سلطة، ولا يمكن أن تتكون جماعة وتتماسك وتقوم بأعمال معينة، إلا بعد أن تحل مسألة السلطة فيها، وإذا افتقرت أي جماعة للسلطة التي تشكل إطارا مرجعيا لها. فإنها تتفكك لا محالة، إلى جماعات فرعية وحين تغيب السلطة وتتراخى القيود التي تفرضها، فإن درجة القلق تبرز كرد فعل على تحرك الرغبات الذاتية الممنوعة من ناحية وخطر التعرض للأذى من قبل الأعضاء الآخرين (انعدام الشعور بالطمأنينة) والوقوع ضحية لنواياهم العدوانية من ناحية ثانية.[24] وهكذا يتضح لنا أن النظام الاجتماعي لا يمكنه البقاء والاستمرار بدون حد أدنى من القوانين والقواعد والمعايير التي تحد من الحرية الفردية، لكن لا ينبغي أن يضر مثل هذا الحد (القمع) بالشخصية الانسانية ولا بحاجاتها، لذلك أن ننظر فيما إذا كانت شدة وأشكال التخلي عن اشباع الرغبات الذي تطلبه الحضارة مبالغا فيها، بمعنى ما إذا كانت تتجاوز ما هو ضروري للحياة الاجتماعية، أو ترهق قدرة الفرد التكوينية على التخلي.

صحيح أن تقييد الإشباعات الجنسية يرتبط بالنسبة لفرويد بمتطلبات المجتمع، إلا أنه يرى أن المجتمعات لا يمكن أن تقوم بدون الكبت الجنسي الذي يشكل شرطا لوجودها نفسه.

غير أن التعمق في تحليل هذه العملية الإدماجية التي تدفع الإنسان إلى قيده. تثير لدى ماركيوز استفهاما يضع العملية القمعية موضع تساؤل: بما أن الحضارة حسب فرويد مبنية على الاخضاع المستمر للغرائز الانسانية وظهور حضارة يقتضي استخدام القمع. أي أن أساس الحضارة اخضاع النزوات وامتناع وكبت، وبهذا السبل يسهم الكبت أيضا في ديمومة العبودية الاقتصادية واستغلال الطبقات الكادحة من قبل الطبقة الحاكمة التي تقضي مصلحتها بالتالي بالدفاع عن مؤسسة العائلة وعن الأخلاق المضادة للحياة الجنسية ومبرر

ذلك "أن الحضارة، أية حضارة كانت تقوم على الحد من اشباع الدوافع الفردية، بفضل التكويني الإرتكاسي، و"تصعيد الدوافع" ولاسيما التحلي عنها أن هذه المسحة الحضارية التي تخيب أمال الدوافع الأصلية، تسيطر على العلاقات الاجتماعية بكامل مجالاتها، ونحن نعلم تمام العلم، سبب روح العداء المتأصل، الذي يجب أن تكافحه جميع الحضارات".[25]

فهل تعوض محاسنها وفوائدها الآلام التي بجانبها الفرد؟ لماذا يتم التعامل معها كضرورة أو كضريبة إجبارية حسب فرويد؟ ألا يمكننا تصور حضارة غير قمعية مبنية على علاقات مختلفة جذريا بين الإنسان والطبيعة، وعلاقات إجتماعية مختلفة في أساسها.[26]

إن هذا الإطار الذي يجعل القمع بكل أشكاله ممارسة تقترن بإنشاء الحضارة، تثير الكثير من التساؤلات، ويحيل إلى تصور مغاير تماما يتجاوز اعتبار القمع كحتمية لبناء الحضارة، وهو ما استثمره ماركيوز في استشراقه لتأسيس الحضارة لا قمعية ولعل "السبب في الحاح فرويد على تلازم القمع والحضارة، هو وجود تناقص جوهري بين مبدأ اللذة ومبدأ الواقع، وهكذا فإن دور المعالج النفسي، في نظرية فرويد، يتلخص في العمل على إعادة المريض للتلاؤم مع بيئته"،[27] لكن مقياس الواقع لا يعني بالضرورة إمتلاك الصورة المثلى لما يجب أن يكون عليه كل وضع، ومنه يغدو تكييف الفرد المريض بما ينسجم والمسار العام للمجتمع لا يتجاوز حدود إعادة الإدماج، لا يمكن اعتباره تحقيقا للشفاء، هذا إذ اعتبرت حالة الإنسان المغترب حالة مرضية قد يكون الأمر على العكس وعلى الضد، فالحالات التي يتميز فيها بعض الأفراد بتهيئات عالية، والتي ترى في الواقع تجسيدا لما هو غير عقلاني كثيرا ما توصف بالحالات المرضية. ومبدأ الواقع ليس بالضرورة مقياسا للحقيقة، حتى وإن كان مبدأ اللذة الملح والمعبر عن غرائز الإنسان يتناقض في الكثير من الحالات على سلم القيم الأخلاقية والجمالية والمعرفية، فقد تكون منظومة القيم تحتضي تناقضات في مضمونها، وتهتز بذلك مصداقيتها أو أن جدلية القمع والحضارة التي يقول بها فرويد وما تقتضيه من التنظيم القمعي للغرائز وتبريراتها التي تزيف وعي الإنسان، تصبح أكثر اضطرابا وإهتزازا.

لقد أكد فرويد "على أن واقع الإنسان الجنسية والعدائية والمتأصلة في طبيعته، تتصارع على الدوام مع الضرورة الاجتماعية وتتناقض مع القيم والمقتضيات الأخلاقية لأي مجتمع.

والسبب الرئيسي في ظهور الأعراض العصبية وتفاقمها في رأي فرويد هو قمع الأخلاق الاجتماعية، وكبحها للغرائز الجنسية"[28].

ما يستشف لنا في هذه الحالة ظهور من الأفكار المتناقضة لدى فرويد، فهو يرى من ناحية، أنا كبح الغرائز ورفضها واحد من الشروط الأساسية لوجود المجتمع ذاته، بل والمدنية في مجملها، وهو من ناحية أخرى يقدم الاشباع التام للغرائز بوصفه الشرط الضروري لصحة الإنسان العقلية، كما يشير فرويد إلى أن ممارسة القمع يتم على مستوى واسع يجاوز حدود الفرد، ليشمل جميع الأفراد كسبيل لتأكيد سلطة المجتمع حيث "يؤكد المجتمع ذاته في رأي فرويد على قهر مقاومة الجماهير وقصورها، ولا تقوم مهمته على قمع المطالب المدمرة فحسب بل تقوم أيضا على إرغام الناس على أن يروضوا أنفسهم على تلك القيود والتضحيات التي يطلبها منهم المجتمع"[29]، إذا فإن النظرية الاجتماعية عند فرويد تقوم على أساس تناقض بين الحرية والسعادة، تناقض ثاني بين الرغبة الجنسية والحضارة وفي الحقيقة يعتبر فرويد أن المعايير الأخلاقية المتشددة، هي التي تؤدي إلى نشأة الأمراض العصبية الخاصة بالأزمنة الحديثة، ويعود السبب في ذلك إلى أن أساس المجتمع هو القمع فيؤكد على سبيل المثال أن "حضارتنا بصورة عامة مبنية على قمع النزوات"[30].

بالإضافة إلى هذا يسند فرويد إلى الشعور بعقدة الذنب دورا ذات تأثيرا حاسم على نمو الحضارة فيأتي فرويد ببرهان مضاعف "بما أن الحضارة تخضع لدافع شهوي داخلي يتجه إلى جميع البشر في كتلة متماسكة بروابطها الموثقة العرى، فإنها لا تستطيع أن تبلغ ذلك إلا بواسطة أداة واحدة وهي تعزيز الشعور بالإدانة دائما وبصورة مسبقة، ومن يبدأ بالأدب ينتهي بالجمهور، وإذا كانت الحضارة هي الطريق الضروري لتطوير عائلة الإنسانية فإن هذا التعزيز يكون حينئذ مرتبطا بصورة، لا فكاك له منها، بتطوره الطبيعي الخاص، على اعتبار أنه نتيجة لصراع التناقض الذي ولدنا معه، ونتيجة الخصومة الأبدية بين الحب والرغبة في الموت، ولعله في أحد الأيام قد يبلغ توتر الشعور بالإدانة مستوى عاليا حتى لا يعود المرء يطيق تحمله.

في ضوء هذه التصورات ينهي فرويد من تأملاته الميتاسيكولوجية إلى أن جدلية الحضارة ما هي إلا جدلة بين غريزة الحياة (الإيروس) وغريزة الموت (تناتوس)، وإن الصراع هو إما من أجل تأكيد واستمرار الحياة، أو من أجل القضاء عليه، أي في كلمة واحدة أن جدلية تسير حسب مبدأ (الصراع من أجل الوجود) وهذا الصراع الحتمي الذي له أساس بيولوجي هو مصدر تشاؤمية فرويد التي تجلت في كتاباته الأخيرة، وهذه الثنائية القائمة، على أساس أونطولوجي في الحقيقة وليس على أساس بيولوجي كما صورها فرويد تظهر التاريخ وكأنه يجري وراء ظهور الأفراد.[31]

وهنا يرفض ماركيوز التخريج الأونطولوجي للغرائز عند الإنسان، كما يرفض الأساس الذي أقام عليه فرويد جدلية الحضارة، واعتبر فرويد مخطئا في نتيجته، لأنه اعتبر المبدأ العائد وهو الصورة الوحيدة الممكنة لمبدأ الواقع، ولو كان هذا الأمر صحيحا لسلم ماركيوز مع فرويد في نتيجته، إلا أن تصور مبدأ واقعا أخر لا يكون فيه (الصراع من أجل الوجود) هو المحرك لجدلية الحضارة، بل التسامي اللاقمعي[32] non répressive sublimation.

إن فرويد قام بعملية توحيد وتطابق بين مبدأ العائد ومبدأ الواقع، فسدّ بذلك الطريق أمام أي تجاوز تاريخي، وهكذا كانت محاولة ماركيوز منصبة على إدخال مقولات تاريخية واجتماعية لتجاوز الطابع اللاتاريخي لنظرية فرويد في الغرائز، حيث "رأى أنه ليس ثمة بنية غريزية خارج البيئة التاريخية"[33] ذلك لأن العضوية الحية تعيش حالة من التوتر بسبب فقدان ما تحتاج إليه لسد حاجاتها، وما يشبعها يوجد خارجا عنها، وبذلك فإن العضوية الحية تنمو وتتغير حسب تغير الظروف الموجودة خارجا عنها، ومن ثم فإن هناك متغيرات جديدة يمكن مواجهة نظرية فرويد عن الحضارة بها هي:

- إن التقدم الحضاري وفر الشروط الضرورية لتحرير الإنسان من العمل (المغترب) هذا العمل الذي يؤسس الحضارة القمعية.
- إن علينا تشكيل صورة جديدة للعقل تتجاوز الصيغة التي تقوم على أساس (مبدأ العائد) التي هي قمعية في جوهرها.

وبذلك يتم -في نظر ماركيوز- تصفية الصيغة الأونطولوجية لنظرية فرويد ذلك أن مبدأ العائد يتطلب تنظيما قمعيا للغرائز، "فإذا كان التطور التاريخي يميل إلى جعل مؤسسات

مبدأ العائد لاغية، فهو سينزع كذلك إلى جعل تنظيم الغرائز لاغيا أيضا، وهذا يعني أنه يتجه إلى تحرير الغرائز من أشكال القسر والتحريفات التي حتمها مبدأ العائد"[34]. وهكذا انتهى ماركيوز في علاقته بفرويد إلى أن النظرات النقدية للتحليل النفسي إنما تأخذ كامل قوتها، على الصعيد النظري فقط، وربما على الأخص حيثما تكون النظرية أبعد عن المعالجة النفسية، أي ميدان الميتاسيكولوجيا عند فرويد، فقد اعتبر ماركيوز "أن الميتاسيكولوجيا التحليلية هي التي تخلفت عن قيم الواقع الذي يهيمن عليه (مبدأ العائد)" وهي التي استفاد منها ماركيوز في بناء حضارة حرة بعد تطعيمها بعناصر تاريخية واجتماعية.[35]

ومن هنا يتضح لنا أن ماركيوز بدأ من حيث انتهى فرويد، الذي أوضح اقتران التطور الحضاري مرهون بالقمع كضرورة وممارسة مبررة في حين أراد ماركيوز أن يدرك حجم التضحية التي يقدمها الإنسان لمثل هذا الغرض الحضاري، فراح يبرزها في تحليلاته التي تعيب على الحضارة مواقف القمع والاستغلال وذلك في مقدمة مؤلف "الإيروس والحضارة" يذكر ماركيوز بالأطروحة الفرويدية القائلة إن أساس الحضارة إخضاع للدوافع وإمتناع وقمع، بيد أن ماركيوز سيدفع المفارقة إلى أقصاها ذاكرا أن فرويد سيكون حينئذ عدو الحضارة الغربية اللدود وحليفها الغريب في الآن ذاته ففي رأيه يمثل "مفهوم الإنسان الذي ورد عن النظرية الفرويدية هو إتهام غير قابل للتفنيد موجه إلى الحضارة الغربية وهو في الآن ذاته دفاع قوي عن الحضارة"[36].

الخاتمة:

يتجه فكر فرويد في مسألة الحضارة المتطورة التي يتباهى بها الإنسان المعاصر والتي تفرض عليه تضحيات كبيرة في بحثه عن السعادة، فيرى فرويد أنها تتجه أكثر فأكثر نحو قمع الرغبات وهو الأمر الذي يشكل سببا أساسيا لمصاعب الحضارة نفسها، وبالتالي فإن مصير الجنس البشري سيظل مأساويا.

وهنا نستشف من المستحيل تخيل حضارة غير قمعية وإن النقص الذي يبرر القمع معتبر هو نفسه خالد وأبدي، وقد برر فرويد القمع الذي تمارسه الحضارة انطلاقا من هذا

النقص الملازم لكل حياة ولكن ماركيوز يشير إلى أن المنجزات التقنية والدخول بمجتمع "الوفرة" يسمح بالتساؤل حول التشاؤم الفرويدي. لأن القمع الذي يعتبره فرويد نتيجة لا مفر منها.

الهوامش

[1]- Freud, ma vie et la psychanalyse,1925-trad Bonaparte, ed, Gallimard, paris, 1981, p 71.

[2]- Freud, L'avenir d'une illusion 1927- trad, Bonaparte, éd. P.U.F, Paris 1971, p 8-9.

[3]-سيجموند فرويد،**خمس دروس في التحليل النفسي**،تر: جرورج طرابيشي،الطليعة،بيروت، 1979،ص 65

[4]-Froum Erich, La Crise de la psychanalyse, T1, Ladmiral éd, Anthropos, Paris,1971, p 206.

[5]-إريكفروم، **مهمةفرويد**،تر: طلالعتريسي، المؤسسة الجامعية، بيروت، 1987، ص 110.

[6]- المصدر نفسه ، ص 73.

[7]-هربرتماركيوز،**الحبوالحضارة**، مصدر سابق، ص 23.

[8]- المصدر نفسه،ص30.

[9]-محمد الجو،**مفهوم القمع عند فرويد وماركيوز**،تر: فتحي الرقيق، دار الفرابي، بيروت، 1994، ص29

[10]-المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[11]-هربرتماركوز،**الحبوالحضارة**،مصدر سابق، ص44.

[12]-المصدر نفسه ، ص45.

[13]-سيجموند فرويد،**مستقبل وهم**،ترجمة،تحقيق: جورجطرابيشي،دارالطليعةللطباعة، بيروت، ط4، 1998،ص10.

[14]-هربرتماركوز،**الحبوالحضارة**،مصدر سابق، ص45.

[15]-محمد الجوة،**مفهوم القمع عند فرويد وماركيوز**،مرجع سابق، ص55.

[16]- Herbert Marcuse, **Eros et civilisation**, trad, Neny et Frankel, ed, Minuit, paris, 1963, p 15.

[17]-Ibid, p 23.

[18]-Pesch E, **La pensée de freud**, éd,Bordas , paris, 1966, p 66.

[19]-سيجموند فرويد، **الحب والحرب والحضارة والموت**، تر: عبد المنعم الخفي، ط1، القاهرة، دار الرشاد، 1992،ص62.

[20]-الربيع ميمون،**نظرية القيم في الفكر المعاصر بين النسبية والمطلقة**،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 1980،ص156.

[21]- Freud, **malaise dans la civilisation**, tradOdier.J, P.U.F, Paris, 1981, p 51.

[22]- محمد الجوة،**مفهوم القمع عند فرويد وماركيوز**،مرجع سابق، ص60.

[23]-هربرتماركوز،**الحبوالحضارة**،مصدر سابق، ص96-97.

[24]-فيصل عباس ،**الإنسان المعاصر في التحليل النفسي**،دار المنهل للبنانية مكتبة النبع للطباعة والنشر،ط 2004، ص242.

[25]- Herbert Marcuse, **Eros et civilisation**, p 16.

[26]-ويلهامرايش وآخرون،**الاسنان والحضارة والتحليل النفسي**، تر: أنطون شاهين، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق، 1975 ص113.

[27]-هربرتماركيوز،**الحبوالحضارة**،مصدر سابق، ص250.

[28]- ف. دور ينكوف،**الفرويدويون الجدد**،ير: محمد يونس، دار الفرابي، بيروت، ط1، 1988،ص12.

[29]- المرجع نفسه ،ص16.

[30]-Frued, **la morale sexuelle « civilisée » et la maladie nerveuse des temps modernes en la viesexuelle**,trad, La planche jean, ed, P.U.F, paris, 1977, p 33.

[31]-هربرتماركيوز،**الحبوالحضارة**،مصدر سابق، ص315.

[32]- المصدر نفسه ،ص 226.

[33]-قيس هادي أحمد،**الإنسان المعاصر عند هربرتماركيوز**،المؤسسة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1980،ص105.

[34]-هربرتماركيوز،**الحبوالحضارة**،مصدر سابق، ص148.

[35]-المصدر نفسه، ص269.

[36]- Herbert Marcuse, **Eros et civilisation**, p 23.